# الأمثال العـــامية
## في الحياة السودانية

للاستاذ على العمارى

لست أعرف فى الفنون الكلامية فناً أدل على حياة الأمة وأصدق تعبيراً عن خوالجها وميولها من الأمثال العامية ، فقد يصدق الشعر عن حياة الأمة وقد يكذب ، وقد تصطبغ الرسالة والمقالة بطابع الأمة ، وقد تقصان بعيداً عن هذا الطابع ، أما المثل فمن الأمة وإلى الأمة ، لا يعبر ألا عن آلامها وأفراحها ، ولا يصور إلا نوع حياتها التى تحياها ، بل هو كثيراً ما يصور دقائق هذه الحياة ، ويصل إلى أبعد أعماقها . وإذا كان الشعر يدور حوله فى حدود ضيقة ، ويقتصر على طبقة خاصة من الشعب ، فإن المثل هو العملة الكلامية الوحيدة التى يتعامل بها جميع الأفراد ، فالمثل الذى يستشهد به الأستاذ فى درسه ، أو القاضى فى محكمته ، أو الحاكم فى إدارته ، هو المثل نفسه ، بلفظه ومعناه ، الذى يلقيه الفلاح فى غيطه ، والصانع فى مصنعه ، والراعى خلف إبله أو غنمه ، والمثل فى كل ذلك لا يفقد شيئاً من قوته ودلالته . فهو يهدى إلى الطريق ، ويحمس الجبان ، ويدفع البخيل إلى الجود ، ويبلغ فى أثره مالا تبلغه القصيدة من الشعر . والأمثال إنما تنشأ من التجارب ، وربما عبرت عن الحقائق الإنسانية الكبرى ، وهذه الحقائق من القدر المشترك بين كثير من الأمم ، لذلك نجد أمثالا شائعة معروفة فى أمم مختلفة ، تتشابه فى المعنى ، وفى الغرض ، وتختلف فى طريقة الأداء ، فيبدو فى أدائها مزاج الأمة وطبيعة حياتها ، فالأمم الزراعية مثلا يتكون كثير من أمثالها من كلمات زراعية .. وهكذا .

وقد تتقارب حياة أمتين أو أكثر تقارباً كبيراً وتشتبه فى كثير من الأمور ، فنجد أمثالا غير قليلة متشابهة عندهما ، وربما اختلفت هذه الأمثال أيضاً فى طريق أدائها ، ولكن اختلافها حينئذ يكون أقل ، وبعض الأمثال خاص ببعض الأمم لا تجده فى غيرها ، نتيجة لظروف حياتها الخاصة .

والباحث فى أمثال أمة من الأمم ليستدل منها على حياة الأمة ، وفلسفتها الخاصة ، يحتاج إلى جهد كبير حتى يكون بحثه وافياً شاملاً ؛ فهو فى حاجة إلى أن يستقصى الأمثال ، ويجمعها كلها ، ثم ينظر فيها على ضوء ما يعرفه من المظاهر المختلفة فى حياة الأمة ، من أخلاق وعادات وتقاليد ، ويرجع كل مثل إلى جدوله الذى انفصل منه ، وسوف يجد فى النهاية — إذا كان دقيق الموازنة والاستقصاء قوى الملاحظة — أن الأمثال صورة صحيحة لكل ما يجرى فى عروق الأمة من عواطف وميول ، وما يحيط بحياتها من مد الأيام وجزرها ولكن ليس ذلك فى استطاعة باحث عابر ، يكتفى بالاشارة ، ويقتصر على النموذج والمثل .

ولا شك أننا نستطيع أن نستخرج كل مظاهر الحياة السودانية من الأمثال العامية . ولنعط القارىء على ذلك أمثلة قليلة لهذا النهج من البحث ، فالمثل السودانى الشائع ( ود العرب دولته يوم عرسه ويوم طهوره ) يعطينا فكرة صحيحة عن العادات السودانية فى الأفراح من اقامة الاحتفالات أياماً عديدة ، يكون فيها العريس موضع التجلة والإحترام من الجميع رجالا ونساء ، ويكون مخدوما مطاع الكلمة حتى أنه يتخذ لنفسه وزيراً يكون له عيوناً فى جميع أموره ، ويستشيره فى الصغير والكبير منها ، ويكون للعريس دالة على أقربائه وأصدقائه لا يحلم بها بعد اليوم من حياته ، وفى ذلك يقول الشيخ عبدالله عبد الرحمن مهنئاً أخاه أحمد وذاكرا هذه العادة :

هات اسقنى حلب العصير حمراء كالخد النضير
وادع الخلاعة والصبا واهتف بحى على السرور
وأقم لأحمد من بيوت الشعر أمثال القصور
كاد العريس يكون ملكا فى مواتاة الأمور
أو ما تراه ملقيا بمهمه نحو الوزير
فكأنه فى وقته رب الخورنق والسدير

ومع دلالة هذا المثل على هذه العادة فإنه يحمل كثيراً من الحسرة الكمينة فى نفوس القوم ، ويدل على ما يكابدونه من مضض تأسفا على المجد الضائع ، والدولة الزائلة . وهل أدل على الحسرة والألم من أن ( ود العرب ) لا دولة له ، ولا صولة إلا فى

هاتين الناسبتين ، يوم عرسه ، ويوم طهوره .

والرقيق كان منتشراً في السودان ، تعرف ذلك من أمثالهم الكثيرة فيه ، وتجارته في بعض الأحايين كانت غير رابحة ، والمثل يقول : تاجران لا يربحان ، تاجر الهف ، وتاجر الكف ، والهف الحبوب ، والكف يريدون بها الرقيق ، وثمن الرقيق – في بعض الأوقات – كان زهيداً جدا ، بدليل المثل : ( فكة ريق ، أخير من راس رقيق ) وفكة الريق ، الطعام القليل الذي يتناوله الانسان في الفطور .

وتأخذ أمثالهم في الصديق ، فتؤلف منها قواعد وأصولا وأسساً تقوم عليها الصداقة الحقة ، ولهم عناية بهذه الناحية لأن الصداقة من الأمور اللازمة لحياتهم ، فأهل السودان أكثر الشعوب مجاملة – فيما أعرف – وقياماً بالواجب ، وهم لا يفرطون في شيء من ذلك في الأفراح أو في غيرها . والكرم فيهم طبيعة غالبة ، والضيافة من الأمور العادية ، ومن شأن كل هذه الأشياء أن تقرب بين القلوب ، وأن تنشيء صداقات كثيرة ، لذلك نجد لهم أمثالا كثيرة في هذه الناحية ، وبالنظر فيها نجدها مصورة لكل ما يحيط بهذا المعنى الكريم ( فالرفيق قبال الطريق ) . ( ومية صاحب ولا عدو واحد ) . و ( ايد على ايد تجدع بعيد ) ومعنى تجدع تقذف ، و ( العود الواحد ما بيوقد نار ) كل هذه الأمثال ترغب في اتخاذ الصديق ، وتحبب في الإكثار منه ، ولكن هل يصادق الرجل كل الناس؟ لا . ( فالخلا ولا الرفيق الفسل ) فليتحمل المرء وحشة الخلاء ، وما فيه من متاعب ، فإنه خير له من أن يزامل رجلاً بخيلاً لا مروءة له ، ولا رجولة فيه ، ولا معاونة ترجى منه ( وخصام الرجل الذكر ، ولا صحبة الرجل الأصنينة ) والأصنينة : الجبان ، وصحبته عار ، ولكن خصومة الرجال الأحرار شرف وأي شرف . فإذا اختار الإنسان صديقه ، ووفق في اختياره ، فليجعله كنفسه ، والمثل السوداني يقول : (ربك وصاحبك ما عليهم مدسة) وليحافظ على صداقته ما استطاع ، ولا يطمع في شيء من ماله أو نفسه ( فالطمع على الرفيق أخير منه القباح ) وليهن إذا اشتد ( فالحبل بين فاتلين ما بينقطع ) وعلى الانسان أن يعرف أن الصداقة تحتاج إلى كثير من المصابرة ، وأن الأصدقاء ليسوا ملائكة ، وأنه يجب ألا يحاسب أصدقاءه على الصغيرة والكبيرة ، فإنه حينئذ لا يجد صديقا ، وهذا معنى المثل السوداني ( اللي ما يبيلع ريق على ريق ما يلقى رفيق ) وفي معنى هذا المثل طال كلام العرب شعرهم ونثرهم :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه

ولعل من أبدع ذلك ما بعث به أحد الكتاب إلى صاحبه منذ ألف سنة يقول : « فأما الانصاف في الصداقة فهو ضالتي عند الأصدقاء ، ولا أقول :

وإني لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو أن كدرت عليه

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والاخوان إخوان ، وحسن العشرة سلطان ، ولكني أقول : وإني لمشتاق إلى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهدا يعطي ويأخذ منك بالميزان

فإذا رأى مثقال حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

وقد كنا نقترح الفضل ، فأصبحنا نقترح العدل ؛ وإلى الله المشتكى لا منه » .

هذا ، وإنا لنجد في الأمثال السودانية ظاهرة بيانية طيبة هي ميلها إلى التشبيه في بعض الأحايين ، فمن أمثالهم (الإبرة ما بتشيل خيطين ، والقلب ما يسع اتنين ) فالمقصود من المثل هو الجزء الثاني ، ولكن جاءوا بالأول ليدلوا به على صدق الثاني ، وأنه من غير الممكن أن يسع القلب اثنين ، كما أنه من غير الممكن الذي يشاهده كل انسان أن الإبرة لا تسع خيطين . ومن أمثالهم (رفيق اتنين كداب ، وراكب سرجين وقاع ، وماسك دربين ضهاب ) فالمقصود تصوير حال المنافق الذي يجمع في الصداقة بين اثنين مختلفين ، متعاديين ، ويزعم لكل منهما أنه صاحبه ، والأثير عنده ، فهذا كذاب ، وهو شبيه بمن يركب سرجين ، أو من يسير في دربين ، فهذا كثير الضلال ، وذاك كثير الوقوع ، ومنها ( صاحبك أن أبالك قلل عليه الحوم ، وباطنك إن وجع كتر عليه الصوم ) لا شك أنهم يقصدون إلى أن ينصحوا في شأن الصاحب ، حين تظهر منه الكراهية والتجنب ، وأن خير علاج لهذه الحالة أن يقلل الانسان من الاتصال به ، فإن ذلك أدعى إلى أن تعود بينهما الألفة ، وهم يذكرون تشبيهاً صحيحاً حسنا لهذه الحالة ، فالمعدة إذا فسدت لا يصلحها إلا الإقلال من الطعام ، وهو تشبيه